نـافـذة

سورية لا تخضع

لأحد، ولا تركع إلا لإيمانها بحقيقة وجودها وأحقيتها فيه، وللمكون الكلي وحده الذي يعلم سر ماهيتها، كما هي تعلم سر ماهيته، ولا تسير في فلك أحد، وإن جميع علاقاتها مبنية على أسس من الصداقة الواقعية وتبادل المصالح التي تفيدها، كما تفيد الآخر، وإن كان هناك من اتفاقات تجريها، فإنها تدخل في إطار سياساتها العامة التي تنعكس أولاً وأخيراً على مصالحها الخاصة، فسورية تؤمن بقوميتها وعروبتها، وجميع أبنائها على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم متعلقون جوهراً ومظهراً قولاً وفعلاً بما اختطته من نهج تعلنه جهاراً نهاراً، فهي شفافة في تعاملاتها، كما هي في ردود أفعالها، وللأسف إن الأمريكي مع الصهيوني يعملان في السر والعلن، على ألا تنتهي أزمتها، ولم تكتف على مدار سبع سنوات من التحريض وتحريك المحيط الهَش ودعم الإرهاب بكل أشكاله، ولم تحاول يوماً فهم سورية من الداخل، لتبقى تدور حولها، تشعل النيران، أو تنفخ عليها، ولم تدرك حتى اللحظة أن سياسة سورية ترسم بيد السوريين أنفسهم وفي حدود مصلحتهم المباشرة وغير المباشرة، وكل ما تثيره أمريكا مع (قاروطتها) إسرائيل وأدواتها في المنطقة من غبار حول مواقف سورية وعلاقاتها، غايته استمرار الأزمة، لأن الجو العالمي جو أزمات، وهذا ما يناسب أمريكا فقط، هل بقي أحد على وجه الأرض لم يدرك حجم التآمر الأمريكي عليه، يبدو فقط أن الأمريكيين وحدهم فقط لم يدركوا بعد أن جميع مؤامراتهم انكشفت، حتى حملات التضليل السياسي والاقتصادي والإعلامي لم تعد قادرة على خداع العالم، وهذا ما أخذنا نلحظه من تكتلات عالمية كمجموعة البريكس، وانفصال بريطانيا عن أوروبا، وظهور محاولات تشكيل الولايات المتحدة الأوروبية، ناهيكم عن التمردات الحاصلة في أمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا على أمريكا وتصرفاتها.

نعم سورية طورت صداقاتها مع روسيا وإيران بشكل خاص، ومع الصين وشرفاء العالم الذين يناصرون وجودها، والذين علموا أن إرادة سورية حرة، كانت ومازالت وستبقى تقدم مصداقيتها في تعاملاتها، وتقدم الوفاء وتتبادله، ولن تستسلم مهما مورس عليها من ضغوط سياسية واقتصادية، ومهما بلغت الحرب عليها ونتاج هذه الإرادة وتعاونها مع أصدقائها وأشقائها الخلص، نرها تكشف المؤامرة بكل أبعادها، وتنفض الغبار الذي سببته ألاعيب أمريكا والصهيونية العالمية المستمرة، والتي ما فتئت تعكر آفاق الحل السياسي في جنيف أو أستنة أو سوتشي، مروراً من فيينا وصولاً إلى دمشق، فالأوساط السياسية العدوانية في أمريكا لم تزل على ما هي عليه، وفي اعتقادي لن تقتنع بأن الشعب العربي السوري يمتلك إصراراً أكثر من أي وقت مضى على الحفاظ على سيادته وصون كرامته، وأن هذا الشعب قدم ويقدم الشهداء تلو الشهداء على مذبح كرامته، ويحطم بإرادته كل أنواع الغزو والعدوان والإرهاب، وها هو عبر سبع سنوات، يسقط كل ما حاولوا الوصول إليه، وأهم أهدافهم إحداث الفراغ السياسي من خلال الفوضى الخلاقة التي شهد الجميع نتائجها المدمرة، التي أسسوا لها بالتعاون وللأسف مع بعض من منظومة دول الخليج والأتراك، وجميعهم لم يدركوا أن ملايين الوطنيين السوريين ساعون دائماً وأبداً للحفاظ على تاريخهم وحضارتهم وثقافاتهم وأديانهم ومذاهبهم وطوائفهم، مع التمسك بحداثة علمية اجتماعية، ينتجون من خلالها ما يفيدهم ويفيد الآخر بكل ما أوتوا من قوة، وعلى الرغم من أنهم شعب مسالم، إلا أنهم يتحولون إلى عمالقة لحظة شعورهم بشيء يمس كرامتهم وإنسانيتهم، ومع هذا إنهم يثبتون كل يوم أنهم على استعداد للتعاون مع الجميع، ومن دون استثناء، لإيجاد الحلول المفيدة التي تتوافق مع أدبياتهم وثوابتهم، وتقدم إيجاباً للجميع، وبهذا يكمن سر استمرارهم وقدراتهم على المقاومة والكفاح وبلوغ النجاحات التي تبهر العالم لما حققوه ويحققونه.

دققوا معي، لم يقم أي رئيس سوري بزيارة أمريكا، وحضر إلى دمشق أكثر من رئيس أمريكي منذ سبعينيات القرن الماضي، قادتها أسسوا لها عظمةً وحضوراً إقليمياً وعالمياً، لم يعجب أمريكا والغرب، أيضاً لتتابع عدم نجاح أي سفارة أمريكية في دمشق رغم ما تقدمه الحكومة السورية من إمكانات الحضور، فما إن تصل العلاقات إلى مستوى شبه إيجابي، حتى تنشأ مشكلة سببها إصرار أمريكا على التسلل إلى الساحة السورية في الظلام، تضع كامل ثقلها لحشد العملاء وشراء الخونة، تستخدم كل إمكاناتها وأجهزتها وموظفيها وخبراء شؤون التآمر والإجرام، وهي التي تمتلك العدد الوفير بسبب حجم المؤامرات التي مارستها، ومازالت في جميع دول العالم.

إن سورية دولة قائمة بذاتها ولذاتها، ولذلك يعتبرون أن تصفيتها تصفية لخطر قائم عليهم، وسياستهم قائمة على التخريب والانتظار، إلا أنهم حتى اللحظة لم يدركوا أنها سياسة وخيمة العواقب، وأن شهوة الجريمة المسكونة في العقل الأمريكي تشبه بترويعها تمتع الذئب الجائع بدماء فريسته، ونسيان ذلك بعد قيامه بالفعل، السوريون يقولون نحن لا ننسى.

أيضاً أتابع وأقول: إن باقي السفارات الأوروبية نجدها تعمل بشكل إلى حد ما جيد، ما دامت السفارة الأمريكية غير فعالة، إلى أن يأتي الأمر الأمريكي بضمها إليها، لكونها لم تعد تمتلك قرارها السيادي وممارسة الضغط الخبيث معها، لنجد مشاغباتها تتحرك تحت المظلة الأمريكية، وهذا ما حدث فعلاً منذ بدء الأزمة المسقَطة على سورية، والتي في جوهرها مؤامرة متكاملة الأبعاد، مخطط لها بشكل دقيق، ومحشود ضمنها أدوات بسيطة رخيصة، وجرى تدريبها على التخريب، تدار بدقة نوعية، فما الغاية من كل هذا التآمر على بلد ينشد الاستقرار له ولمحيطه، ويعمل للحفاظ عليه، وهذا ما يظهر لنا أنهم أعداء تطورنا وتمسكنا بسيادتنا وطموحنا بالانتقال نحو الأفضل.

إن سورية التي تكشف أساليب استعمار الدول العظمى للدول التي تريد إبقاءها مستضعفة، وهي ذاتها القديمة التي تقدمها بلبوس جديد، وتؤكد أنها مازالت تسيطر على عقلية ساستها في أمريكا أو أوروبا الغربية الذين يدفعون لاستمرار التآمر والاعتداء على حرية وثقافة وبناء الشعوب الآمنة والمسالمة، حيث لا تخجلهم تصرفاتهم، تظهر سورية وتجاهر وتنادي بتحرير الشعوب، وتدعم مقاومتهم، وتسعى معهم لكشف تآمراتهم وحملات الأكاذيب والتضليل التي يمارسونها.

هل وعى العرب ماذا فعلوا بعروبة سورية العربية؟ هل أدركت الأنظمة العربية ما يحاك لها من مؤامرات، وما يرسم من خطط دنيئة لتحطيم مجتمعاتها، ومن ثم تحطيمها، والأمثلة أمامنا عديدة، وإن الذي يجري لم يعد خلف الستار، وهم يدقون علناً أسافين للقضاء على ما تبقى من كرامتهم وشرفهم وسمعتهم، هؤلاء الساسة المغرضون بإيعاز من أسيادهم وأولياء حضورهم، يسعون للتطبيع مع العدو الرئيس ومنظومته الداعمة له، أليس كل ما جرى مع سورية بسبب مقاومتها لمشاريع الهيمنة؟ فإلى الجميع تقول سورية إنها لن تتخلى عن مبادئها وقيمها وكفاحها من أجل الحياة ومقاومتها لكل أشكال العدوان، والأيام تأتي تباعاً لتريكم وتري العالم أنها على حق، وأنها لمنتصرة، وأنها لن تخضع، ولن تركع.

د. نبيل طعمة

كنوز منسية.. تراثنا الساحلي الريفي

كنوز معرفة وتراث أجداد وأقوال نحيا بها ولها

| سارة سلامة

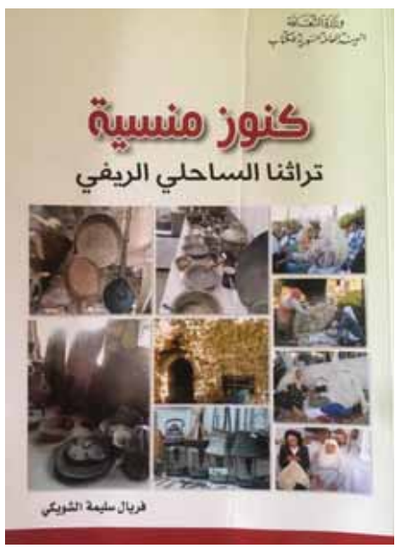

تراثنا هو ذهبنا وحاضرنا وماضينا وكما يقول المثل:(اللي مالو قديم مالو جديد)، ويتميز التراث في الساحل السوري بالغنى بكل ما فيه من عادات وتقاليد وإرث كبير تركه لنا الأجداد ويتوارثه إلى الآن الأبناء، هذه الحياة البسيطة والجميلة جعلت من الكاتبة والباحثة فريال سليمة الشويكي أن توجه اهتمامها إلى دراسة هذا الإرث الكبير وتوثقه في مجلد ليبقى خالداً للأجيال القادمة تحت عنوان: (كنوز منسية- تراثنا الساحلي الريفي)، صدر حديثاً عن وزارة الثقافة- الهيئة السورية للكتاب- مديرية التراث الشعبي، والكتاب ضمّ خمسة عشر باباً وفي كل باب عدة فصول، واستهلت الشويكي كتابها بإهداء خصته إلى زوجها الدكتور محمد زياد الشويكي.

لتبقى في ذاكرة الأجيال

وتقول الشويكي في مقدمة الكتاب: «حين تعبر مخيلتنا جدار الزمن الذي كان، وتطل على عالم بَعد وغاب، وتجول في ما مضى وآل إلى النسيان، تمتد اليد برفق، وجلال، تزيح تراكمات الأيام عن تربة الماضي الصامت، الذي يخبئ أسرار الأجداد، ويعانق أحلامهم الماضية، ويتبادر إلى الذهن سؤال:

أما آن لذكرى أولئك الأجداد أن تنال بعض الاهتمام؟ وتحفظ لتبقى حية في ذاكرة الأجيال القادمة؟ أولئك الأجداد، والآباء، ومن سبقوهم، من الذين شغلهم كفاحهم في سبيل الحياة ومعاناتهم من ثقل الأحداث التي مرت بهم، وظلم المستعمر الذي سلبهم حقوقهم، أمور حالت دون تخليد ذكراهم، أو تسجيل كنوز معارفهم، أو محاولة حفظ صورة حية لتلك الحياة الغنية التي عاشوها مع فقر زمانها.

كنوز ومعارف لا تحصى يخبو بريقها، ويعلوها الغبار، وتبعد صورتها، كلما طلعت الشمس، وغابت بغيابهم، أولئك المعلمون الأوائل الذين كانت مدرستهم الطبيعة، ومنهجهم الأخلاق الحميدة، وشعارهم الكد والعمل من أجل العيش ضمن دائرة الكرامة، وتحت لواء الكسب الشريف، وليس حباً في امتلاك الدنيا التي تأبى أن تملك أحداً.

وتتابع الشويكي : «في هذا الكتاب لا أستطيع حصر الموضوعات التي ستدرج بدقة وتفصيل، لأنها متداخلة كما يتداخل شاطئ البحر بين الجبال وسفوح الصنوبر، لتشكل صورة لساحلنا يصعب فصلها عن بعضها، ومع جهدي في جمع أكبر قدر من صور تلك الحياة لإبرازها إلى الوجود، في كتابي الأول والثاني، لا أستطيع مع هذا أن أقول إنني وفيت التراث حقه، ربما أمضيت بقية عمري، أبحث مثل كل العاملين في مجال الآثار، عن كنوز معرفة جديدة، ضائعة، مخبأة يلزمها مخلصون مهتمون لإبرازها إلى الوجود».

تؤرخ لحظات الزمان

ترصد المؤلفة الحياة الريفية البسيطة وكيفية عيشها وتقول: «اتقاء للانتقام، هجرت الأسرة المنزل الكبير، منزل الضيوف الفقراء، منزل من لا مكان له، يحلّ فيه التحالف حتى يشعر بالأمان، والضعيف حتى يشعر بالقوة.

منزل السهرات البسيطة الغنية، تتحلق الأسرة وضيوفها حول محسن، يقرأ من قصة عنترة كل يوم شيئاً جديداً، يجعل الليل حكاية ملونة، وسيرة حب مشوقة، وقصة بطولة نادرة، تغفو الأسرة على وسادة الحلم الأخضر، أشعار عنترة تحفظ كصلاة يرنمها كل فرد على هواه، تردد، تغنّى، تؤرخ لحظات الزمان من سرور ومعاناة.

صورة حياة يتشابه فيها أبناء الريف الساحلي، ينثرون على بساط السهرة بذور أمنياتهم، لعلها تنبت في غدهم، وتثمر في المقبل من أيامهم، كما أثمرت تلك الثقافة التي ورثوها عن أجدادهم، فكانت بحق أحد أعمدة حياتهم المرتبطة بالأرض، ودليلهم الموثوق للتعامل معها في كل فصول السنة، سفر شفوي يزخر بالمعلومات، المقولات والأمثال، يصف البحر، الجو، الأيام، القمر، النجوم، والطقوس التي تحمي الحيوانات والمزروعات، ويذكر أحوال الناس في ظل المستعمر والإقطاع والحروب المهلكة، والجائحات المرضية الفتاكة، التي كان دواؤها الأعشاب والرقى، والإيمان بما كتبه الله، وبما رددته الأغاني الحزينة والعاطفية من زهور الكلام».

الأيام ومدلولاتها

نجد الكثير من المصطلحات والكلمات التي قيلت في ذاك الزمان وهي إلى اليوم تقريباً قد اندثرت، الكاتبة توثقها قائلةً: «في هذا الكتاب نحن بمعرض تدوين التراث بصدق ونجد أنفسنا ملزمين بتقديمه كما هو، وبالصيغة التي توارثناها عن أجدادنا، وليس علينا أن نتخذه كما اتخذوه بحال من الأحوال، وعن الأيام وما هو مستحب نورد أقوالاً متوارثة تقول: (يوم السبت يوم مكر وخديعة، والأحد غرس وبناء، والإثنين يوم سفر وطلب رزق، والثلاثاء يوم حرب وبأس، والأربعاء يوم لا أخذ فيه ولا عطاء، والخميس يوم دخول على السلطان وطلب الحوائج، والجمعة يوم خطبة ونكاح).

وأما ما يجري على لسان الناس في الريف، وما اعتادوا أن يردوه عن الأيام فيقول:

السبت: (نَبت)، بمعنى أنه يصلح للزرع، وهو قول مجهول السبب.

الأحد: (لَحد)، بمعنى أن من يقوم بمشروع ما ينتهي إلى اللحد، يوضع في اللحد، وهذا ضرب من الإحباط للإنسان.

الإثنين: (من تودعه الإثنين تراه بالوفاة الإثنين)، بمعنى أنه نهار مشؤوم كما يكره الاستحمام والغسل يوم الإثنين وكذلك بعضهم يردد: (إن العروس التي تتزوج الإثنين تعود من حيث أتت)، فالزواج فيه مكروه، لأن العروس إما أن تعود مطلقة أو يموت زوجها فترجع لأهلها.

كما يقال: (غسالة الإثنين غسيلها ما بينظف وحبيبها ما بيرجع).

الثلاثاء: (لا تفصّل الثياب، لأنه وراثة)، بمعنى أن صاحب الثوب الجديد يرث ماله الآخرون ويرددون (خياطة الثلاثا يا حريق يا غريق يا وراثة).

الأربعاء: أيضاً لا يقص الثوب فيه لأنه (حريق أو غريق)، وهو اعتقاد المتطيرين من الناس أيضاً.

الخميس: يقولون (فصّل لحبيبك قميصاً) فهذا اليوم يستحب فيه تفصيل الثياب على جري عادات من كان يأخذ بهذه الأقوال، كما أنهم يرددون: (إن قص الأظافر يوم الخميس والجمعة يورث الغنى وهي دعوة رائعة للنظافة).

الجمعة: (جماعة)، بمعنى أنها جماعة للمطر بإذن الله، كما يردد البعض، والسبت (لماعة، والأحد يا بتحد يا بتمد)، وكلمة لماعة إشارة إلى البرق الذي يسبق المطر، ولكل إنسان مقولة يرددها في هذا المجال.

وهذه الجمل المسجوعة التي وصفت بها الأيام، يتجلى لنا أنها اختصرت تجارب الناس في سيرة حياتهم وأوجزتها على شكل مقولات، تمثل بلا شك خلاصة ما تعلمه الإنسان بعد ملاحظة وكد وجهد على مر العصور، وتلك النتائج انتقلت من جيل إلى جيل، إنه التراث الذي يتضمن ما كان يتحكم بحياة الناس سواء من واقع أم أسطورة، وما يرتبط مع الزمان الذي مضى.

العين وتأثيرها في الأشخاص

ومن العادات والتقاليد التي ما زالت تستخدم حتى يومنا هذا (صب الرصاص)، وتذكر المؤلفة ذلك وتقول: «(النضرة): تسميتها في الساحل وهي في الحقيقة (النظرة) الحسد، أو الإصابة بالعين، وجاءت عادة تذويب الرصاص حين يكون الطفل بوعكة لا يعرف سببها، وأول ما يتبادر إلى الذهن أن الطفل أصابته عين حاسدة، وبما أن تقاليد الناس حيال هذه الأمور تختلف من مكان إلى مكان، مع وجود خطوط عريضة واضحة لكل عادة، يحيط بها عدد من الاختلافات، أو الإضافات كل حسب رأيه، أحب أن أضيف هنا ما عرفته عن هذه العادة التي تتجلى بوجوب سكب الرصاص للأطفال، والطريقة كالآتي: يجلب غربال، ويوضع عليه بصلة، وبعض الملح في ورقة أو إناء، ومقص وصحن يحتوي على الماء إلى جانب قطعة رصاص، ومنهم من يضع في الغربال مقصاً وإبرة وخبزة، ويقولون وهم يتخيلون الشخص الذي أصاب الطفل بالنضرة:

(المقص إذا حكي عن الطفل يقص لسانو، والإبرة إذا حسد الطفل تشكو بعينو، والخبزة إذا نُظر إلى الطفل نظرة فارغة تمتلي عينو).

التنين كوحش أفعواني

يتكون التنين من غيوم كثيفة جداً، تلتف مع الهواء الشديد فتسحب معها الرمال والأصداف، والطحالب، والأسماك من قاع البحر، ويقتلع التنين الأشجار في طريقه حسب شدته وقوته، وحركة التنين الدائرية قادرة على اقتلاع أشجار عمرها (٣٠) عاماً وكذلك قلع البيوت ورمي حجارتها وأشجارها بعيداً، كما ترفع كميات هائلة من مياه البحر إلى أعلى، هذا ومنذ (٧) سنوات كسر التنين في طريقه قرابة (٧٠) شجرة زيتون، وأشجاراً ضعيفة أخرى لا تحصى.

قطع التنين: أذكر أن جدي رحمه الله حين كان يشاهد بوادر التنين التي تتراءى فوق البحر حيث قريتنا المطلة عليه، كان يأخذ عود توت، ويبدأ بتنجيره وتقطيعه شيئاً فشيئاً، ويقرأ آية الكرسي ثم يقول: (يا هذا، يا ماذا، يا لله تنقطع بسيف الله يا هذا ويحدث في اليوم الواحد أكثر من تنين).

ولنقرأ عن التنين في عرف الأقدمين: التقليد الشعبي في الشرق الأدنى حتى يومنا هذا يصور التنين كوحش أفعواني جبار، والزوابع الشتوية التي تظهر فوق البحر إزاء الشاطئ السوري على شكل ثعبان أسود يرتفع من الماء إلى الغيوم، ويشار إليه باسم تنين في اللغة الشعبية، وفي الأدب العربي القديم نجد وصفاً للتنين، وعلاقته بالبحر، ففي كتاب مروج الذهب للمسعودي (القرن العاشر الميلادي) أن التقليد الشعبي في زمانه يعتبر التنانين تنشأ كريح سوداء في قاع البحر، ثم تبلغ سطح الماء، وتصعد إلى الغيوم على شكل زوابع، ويضيف: إن الناس يعتقدون أن هذه الزوابع هي أفاع سوداء تنبعث منها ومضات من الضوء ولا تتوقف مسيرتها المدمرة حتى تأتي ملائكة الغيم المرسلة من الله فتجبرها على الخروج من البحر، وبحسب هذه الرواية يأتي أجل هذه التنانين عندما تضعها الملائكة في أرض يا جوج وما جوج حيث تمطرها الغيوم بوابل من البرد، ويخبرنا المسعودي أن الفرس يسمون التنين (أديوهان) ويعتقدون أن له سبعة رؤوس.

الجديد من أدوات الزينة

لم تكن المرأة تستعمل حتى عهد قريب أي نوع من أدوات الزينة سوى (الكحل)، وقد رافق وجود الكحل وجود المرأة، من لحظة الولادة، إلى لحظة الممات، ذلك أن الطفل بمجرد أن يلد، يصار إلى تكحيله، ولداً كان أم بنتاً، وما زال كثير من الناس في الريف يتبعون هذه العادة، ظناً منهم أن الكحل يؤثر في لون العينين فيزيدهما بهاءً، ويخترق الجلد فيغذي الرموش فتغدو سوداء فاحمة، وهو إن لم يكن للتجميل، فلناحية وقائية راسخة في الأذهان، وكانت كل امرأة تحضر الكحل بنفسها، وتضعه في مكحلة، ليكون جاهزاً دائماً، ودائماً كانت المرأة تردد المقولة التي تقول: (إن العين تطالب بوقية كحل كل سنة).

الفن والحرب.. جمال وقبح ومقاومة

| كرم النظامي

الفعل الإنساني القادر على إبداع الجَمال، قادر أيضاً على إشعال الحروب والتسبب بالخراب والدمار في ازدواجية مثيرة للجدل من حيث تكوين النفس البشرية.. من غابر العصور والإنسان يبني ويدمر، يزين ويشوه، يرتقي القمم في بناء الحضارات ثم يهوي إلى حضيض النزعة التدميرية.. فإلى جانب إبداع لوحة تشكيلية أو نحت تمثال أو تأليف نوته موسيقية، يخترع ويكتشف ويسوق وسائل الحروب والدمار ويسخر العلم لتطويرها.. أي إن الإنسان يحمل في أعماق روحه نقيضين: الحياة والموت!

إن الحرب على الرغم من لا إنسانيتها وقسوتها ونتائجها الكارثية على الإنسان والطبيعة والبيئة والتراث وجميع مخلوقات الأرض المنكوبة، شكّلت أرضية خصبة لتفتق الخيال على الإبداع من صميم الألم والمعاناة والخوف في تجل رائع للتطهر الروحي وتأريخ الحدث بلوحة أو أحفورة أو حتى ملحمة شعرية ومن هنا بالذات جاء الفن برسالته الخالدة التي لا تنطفئ عبر العصور..

الحرب أنجبت الإلياذة والأوذيسة والإنيادة والشاهنامة وغيرها من الملاحم الشعرية.. ولدرء الحرب شُيدت الحصون والقلاع والأسوار التي صارت تحفاً معمارية وأثرية، والحرب دفعت بالفنان العالمي بابلو بيكاسو إلى إبداع لوحة غرنيكا الخالدة «١» والتي هي عبارة عن لوحة جدارية استوحاها من قصف مدينة غرنيكا الإسبانية بالطائرات الألمانية والإيطالية لدعم حكم الجنرال فرانكو الفاشي عام ١٩٣٧.. وتجسدت فيها كل مظاهر الخراب والدمار والألم الإنساني.. والحرب الأهلية في فرنسا في عام ١٨٣٠ خلدها الفنان الفرنسي يوجين ديلاكروا بلوحة (الحرية تقود الشعب) وهي لوحة زيتية جدارية «٢» تحمل رموزاً ودلالات ثورية على هيئة امرأة ثائرة فارعة الطول، حافية القدمين، ترفع علماً بيد وبندقية باليد الأخرى بين ركام من جثث القتلى..

وعقب الحربين العالميتين في القرن الماضي ظهرت تيارات فنية ومدارس عديدة كالواقعية والرمزية والتعبيرية رصدت ويلاتهما وتماهت مع حركة أدبية رافضة لبشاعة الحروب وداعية للسلام والحب والخلاص الفردي.. فالشاعر الفرنسي ايلوار مثلا كان يكتب قصائده في مرسم بيكاسو، ولويس اراغون كان ينشر لوحات أصدقائه الفنانين على صفحات جريدة الحزب الشيوعي الذي كان يرأسه.

والفنانون السوريون من الرواد لم يكونوا بمنأى عن تناول الحروب وآثارها في أعمالهم الفنية التشكيلية الخالدة بدافع الإلتزام والروح الوطنية.. حيث رصدوا آثار الانكسارات والانتصارات معاً، ووظفوا تجربتهم الإبداعية في إنجاز لوحات تموج بالدلالات التعبيرية والرمزية عن حالات الحزن والفرح والأمل من خلال رؤية تشكيلية تفرد بها كل فنان.

فالفنان الراحل لؤي كيالي أقام معرضاً تشكيلياً بُعيد نكسة حزيران ١٩٦٧ التي أثرت في نفسيته وأدخلته في مرحلة كآبة انتهت بانتحاره، حيث جاءت لوحاته التعبيرية مغرقةً بالحزن والسواد «٣» استخدم فيها تقنية الفحم، وقبلها كان شديد التفاعل مع المأساة الفلسطينية من خلال معرضه (من أجل القضية) الذي ضم ثلاثين لوحة غرافيكية وزيتية تلخص الألم والمعاناة والقهر الإنساني بسبب الظلم والطغيان.

كما أبدع الفنان الراحل نذير نبعة أروع لوحاته في مرحلة نهوض الثورة الفلسطينية، فهو من صمم شعار العاصفة الشهير لمنظمة التحرير الفلسطينية، وإثر نكسة حزيران أيضاً أنجز مجموعة من اللوحات عن النابالم الذي استخدمه الصهاينة ضد المصريين مصوّراً الحزن والأسى المرتسم على وجوه الضحايا «٤» ثم انتقل بعد حرب تشرين وانتصاراتها إلى رصد الفرح والأمل من خلال ابداع اروع لوحاته عن دمشق المتألقة المنتصرة المزدهية بجمالها مستخدماً الألوان الزاهية المضيئة والتكوينات ذات الدلالات الرمزية الساحرة كزهر الجلنار وثمار الرمان والورود التي ترفل من حولها امرأة فاتنة هي دوماً، دمشق.

وبالرغم من مرضه قبيل رحيله، كان مصراً على إتمام آخر لوحاته (سورية) التي استعاد بها خطوطه القوية معبراً من خلالها عن التحدي والصمود والوقوف في وجه العاصفة السوداء التي لا تزال تفتك بها.

ولم يكن الفنان الراحل غازي الخالدي بعيداً عن تفاعله مع انتصارات حرب تشرين أيضاً كغيره من الفنانين السوريين، فلوحاته الرمزية والتعبيرية حفلت بالفراغ المنظوري واللوني الحامل لشكل المرأة العارية كرمز للأرض المستباحة أو المقهورة، لكن يصحبها باستمرار (الحصان) الجموح الثائر «٥». وموضوعه دوماً دمشق المزدهية المتألقة.

وكثير من الفنانين السوريين تألقوا بأعمالهم التي عالجوا فيها موضوع الحرب، حيث حملت الاحساس العفوي وضجت بالاتجاه التعبيري والرمزي والاختزال والتحوير بهدف الوصول إلى الإيحاء المطلوب الذي تؤديه لمسات اللون الكثيف ودرجاته المتفاوتة على سطح اللوحة، كالفنان الراحل فاتح المدرس وعبد المنان شما وممدوح قشلان ونعيم إسماعيل وبرهان كركوتلي وغيرهم كثر.

وفي اللحظة الراهنة حيث لا تزال الحرب القذرة تضرب بأرجاء سورية، ظهرت أعمال تناولتها ورصدت انعكاساتها وآثارها المادية والروحية وأحزان المشردين وغرقى البحار من المهاجرين والطفولة المعذبة كلوحات الفنان عبد الحميد الفياض وسرور علواني وعصام درويش وغيرهم، والمرحلة القادمة ستميط اللثام عن الكثير من التجارب والأعمال المهمة التي ستؤرخ لهذه الحرب القذرة.

في الحرب يموت ويزدهر الفن في آن.. فالفنان يحاول التحدي رغم الموت المحدق به.. فبوسائله السلمية الشفيفة من خامات وألوان وأدوات، يعلن موقفه ويطلق صرخته في وجه المآسي والويلات وهو في خضم الأهوال كالفنان السوري الآن، ولكن بدافع الأمل يستمر وسينتصر.. إن الإبداعات الإنسانية فيما بعد الحروب، خلدت آثارها وتماهت مع كوارثها لتكون إشارة خطر وعبرة للأجيال القادمة، كما مهدت أرضية ظهور تيارات فنية مدرسية معاصرة فتحت آفاق الفن الحديث بدأت بالواقعية الرمزية ولن تنتهي بالتجريدية أو السوريالية.. فالإنسان كائن خلاق وتصقله التجارب القاسية كالحروب وغيرها من مآس.. إن الأصل في البقاء للحب والسلام والإبداع!